مجلة منتدى الأستاذ
المجلد: 21 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2025 الصفحات 476- 486

التاريخ وآليات توظيفه في رواية البيت الأندلسي لواسيني الأعرج

History and the mechanisms of using it in the Wacini Laredj's novel El beite El Andalousi

الطاهر مسيلي[1]،*

[1] جامعة عبد الرحمن ميرة/ بجاية (الجزائر)، tahar.messili@univ-bejaia.dz

مخبر التأويل وتحليل الخطاب.

تاريخ الإرسال: 2025/03/28 تاريخ القبول: 2025/09/26

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن الأحداث التاريخية التي تضمنتها رواية "البيت الأندلسي" لواسيني الأعرج"، والبحث في الغاية من وراء هذا التوظيف، إضافة إلى تبيان الآليات والتقنيات السردية التي تم العمل بها. وفيما يخص المنهجية المتبعة فكانت بالتعريف بالكيفية التي تم بها إدخال النص التاريخي وتحويله إلى سرد روائي في هذه الرواية، وبإظهار الوقائع الحقيقية التي وظفت فيها وكذلك أشكال ظهور وطرق تقديم الشخصيات التي مثلتها. كل هذا جاء من أجل الإجابة عن التساؤل الآتي: هل استطاع هذا الكاتب مقاربة الواقع الذي يريد التعبير عنه؟

الكلمات المفتاحية:

البيت الأندلسي؛
واسيني الأعرج؛
الرواية؛
التاريخ؛
التقنيات؛

ABSTRACT:

This article aims to revealing events included in the novel El beit El Andalousi, and the objectives of it, in addition to the narrative techniques employed by the writer. As to mythology, the work began with the manner a historical text was included in narrative, revealing the real facts used in it, in addition to the manner of introducing characteristics. The objective of these techniques is to answer the following: did the writer succeed in his approach?

Keywords:
El beit El Andalousi ,
Laredj Wacini,
Novel,
History,
Techniques,

* الطاهر مسيلي.

1-مقدّمة:

تعرف الرواية بأنها «قصة خيالية خيالا ذا طابع تاريخي عميق»[1]، يسعى مبدعوها إلى إعادة قراءة ما حدث وكتابته بصورة أقرب إلى الحقيقة، وهذا يقودنا إلى القول بأن: «الرواية عمل فني يتخذ من التاريخ مادة له، لكنها لا تنقل التاريخ بحرفيته بقدر ما تصور رؤية الفنان له وتوظيفه لهذه الرؤية للتعبير عن تجربة من تجاربه، أو موقف من مجتمعه يتخذ من التاريخ ذريعة»[2] للتعبير عما يريد.

يقوم كاتب الرواية بعرض «التاريخ في قالب قصصي، أي أنه لا يؤرخ، بل يتخذ التاريخ موضوعا للسرد، ويخضع المادة التاريخية لطبيعة الفن الروائي، كالتخييل والحبكة ... والتشويق»[3]، حتى يكسب نصه طابعا فنيا متميزا مبنيا على ما يسمى بالتخييل التاريخي الذي «لا يحيل على حقائق الماضي ولا يقررها ولا يروجها، إنما يستوحيها بوصفها ركائز مفسرة لأحداثه، إنه نتاج العلاقة المتفاعلة بين السرد المعزز بالخيال والتاريخ المدعم بالوقائع، ليشكل تركيبا ثالثا مختلفا عنهما»[4] ينتج من خلاله عملا قصصيا يحمل بين طياته رسالة لقرائه.

تختلف الروايات من حيث تعبيرها عن التاريخ، فقد تكون «ربما تاريخا شخصيا ...وربما تكون تاريخا لعائلة...ولربما كانت تاريخ مدينة...أو ربما كانت تاريخا لهذا العالم الذي نعيش فيه...وربما كانت تاريخا لعالم نتوقعه، عالم بشع نخشاه كما فعل ألدوس هسكلي في روايته "عالم جديد شجاع"، أو رواية لعالم نحنّ إليه ونتمناه كما فعل يفيغيني زمياتين في روايته "نحن"»[5]؛ وقد تكون لحضارة زالت ولواقع مؤلم متدهور كما هو الحال في رواية "البيت الأندلسي لواسيني الأعرج" التي غاصت في الوجود الإسلامي ببلاد الأندلس مصورة صراع المسلمين ضد الإسبان، وأسباب انهيار خلافتهم، كما استحضرت بعض الوقائع التاريخية التي شهدتها الجزائر بداية من الاحتلال الفرنسي وصولا إلى العشرية السوداء، بالإضافة إلى الإشارة ولو بالتلميح لحرب الخليج.

يكمن الهدف من وراء صفحات هذا المقال في تحديد الغاية من توظيف الوقائع التاريخية في هذه الرواية، والكيفية التي تم بها عرضها.

تقوم إشكالية هذه الدراسة في الإجابة عن التساؤلات الآتية: ماهي الأحداث التاريخية التي وظفت في رواية البيت الاندلسي؟ وهل كانت مطابقة لما ورد في كتب التاريخ؟ وما هي التقنيات التي استخدمها الروائي في عرض وتقديم أحداث وشخصيات روايته هذه؟

ومن المفروض أن هذا النص في مقاربته للأحداث التاريخية سيختلف عن الكتاب التاريخي من حيث تصويره ومعالجته لها، وذلك بإدخال عنصر التخييل، وأيضا في طريقة تقديمها التي تعتمد على الآليات المتعارف عليها في كتابة الروايات.

2-إدخال النص التاريخي في رواية "البيت الأندلسي":

استهل الكاتب روايته بقولين، أولهما لـ " غاليليو الروخو" الذي ورد فيه ما يلي: «وإن البيوت الخالية تموت يتيمة»[6]، أما الثاني فهو عبارة عن بيت شعري لـ " أبي البقاء الرندي" مفاده:

«وهذه الدار لا تُبقِي على أحد ولا يدوم على حال لها شان»[7].

وبتفحص مضمون هذه الرواية يتضح بأن الغاية من هذين الاستشهادين تكمن في الكشف عن فقدان حكم المسلمين لبلاد الأندلس الذي لم يبق منه سوى آثارهم العمرانية التي هي الأخرى لحقها الضرر بسبب فعل الزمن واللامبالاة.

وظف بعد ذلك نصوصا لشخصيات هامة تحت عنوان "استخبار ماسيكا، وتوشية مراد باسطا"، مع العلم بعدم وجود نصوص صريحة مأخوذة من كتب التاريخ، كون الرواية تحكي عن بيت قديم، وما ورد منها كان خاصا بالمخطوطة التي تركها "غاليليو الروخو"، وبعض العبارات المكتوبة بالخيميادو لغة الأندلسيين السرية مثل: «موريسكو. سي سنيوريتا. سي يو مريسكو دي سيفيا»[8]، التي يمكن اعتبارها من النصوص التاريخية.

قسمت هذه الرواية إلى خمسة فصول واثنتي عشرة ورقة من مخطوطة "غاليليو الروخو". والملاحظ على الفصول عدم احتوائها على مقدمات، أما الأوراق فهي صغيرة، نجدها إما تحت العنوان، أو في الأسفل –التهميش–، وهذا ما نراه في الورقة الثانية التي تحمل عنوان "المحروسة خريف 1573 "، التي تحكي عن قصة غاليليو الروخو والدون فرداندو دي كردوبا، حرب البشرات، اقتتال الإخوة بين الموريسكيين، والمدجنين والأتراك المتطوعين، إضافة إلى موت الأمير سيدي محمد بن أمية وخيانة السفن العدوة الأخرى والاستسلام المر، وصولا إلى انتهاء المغامرة الإسلامية ببلاد الأندلس على يدي الدون خوان النمساوي[9].

ورد حضور التاريخ داخل السياق النصي لهذه الرواية في شكلين، الأول كان بالمحافظة على النص التاريخي من خلال وروده على شكل بنية سردية مستقلة محصورة بين قوسين صغيرين، وهنا قام الكاتب بقطع السرد الروائي لإدخال النص التاريخي الذي يأتي غالبا بوساطة الشخصية الروائية التي تستشهد بنصوص المؤرخين أثناء حديثها أو في حوارها مع غيرها من الشخصيات الأخرى، ويتجلى هذا في عرض "مراد باسطا" لما قاله جده "غاليليو الروخو" في الورقة الأولى من المخطوطة حول مقتل أخيه وإزهاق أرواح الكثير من الأبرياء: «سأبكي عمرا ذهب في الريح ولم يسمح برؤية قاتل أخي، لا لأنتقم منه فقط، ولكن لأسأله أولا: لماذا فعل ذلك في ناس أبرياء لم يناصبوه أي عداء؟ كانوا مثله في دينهم وإيمانهم، أسألكم أنتم من تعرفون الله جيدا، ماذا كنتم ستتصرفون أمام اغتصاب ابنتكم، أختكم أو أمكم؟»[10]، وهذا المقطع ما هو سوى نص تاريخي أعاده البطل حرفيا عن جده الأول قاطعا في ذلك السرد الروائي الذي يتكرر باستمرار في كل ورقة من أوراق "غاليليو الروخو".

أما الشكل الثاني فكان بتماهي النص التاريخي مع أحداث هذه الرواية الذي كان غالبا على لسان الراوي المحيط بكل شيء، الذي يسرد أحداثها وفق ثقافته الخاصة، ويظهر هذا في معرض دفاع "غاليليو الروخو" عن نفسه في محاكم التفتيش الدينية: «أنا مرتد، مسيحي وأقوم بكل طقوسي، لم أحمل السلاح يوما ضد الملوك الكاثوليك، ولكني حملته ضد اغتصاب نسائنا وضد الظلم الذي مورس علينا ...»[11]، وهي صورة معبرة عن بشاعة الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون، كما يحضر قول "مراد باسطا" في تعداده للتسميات التي أطلقت على "البيت الأندلسي" «هذه الدار، الخربة الرومانية، البيت الأندلسي، كازا أندلوسيا، دار لالا سلطانة بلاثيوس، دار المحروسة، دار لالا

نفيسة، دار زرياب، إقامة الإمبراطور، ملهى الضفاف الجميلة ...»[12]، وهذه التسميات جميعها تحمل حقائق تاريخية مرتبطة ببلاد الأندلس.

تماهى النص التاريخي في هذه الرواية ليصبح كلام "غاليليو الروخو" السارد لأحداثه بوصفه شاهدا على وقائعه، وذلك في وصفه لما كان يحدث من معاملات وحشية لمعتقلي محاكم التفتيش في غرناطة، نتيجة محاربتهم للمسيحية والكفر بها. نفس الشيء بالنسبة لـ "مراد باسطا" الذي روى ما قام به حاكم الجزائر "جونار"، بعد تنصيبه من طرف "قامبيطا" سنة 1881، إذ «في عهده انتعشت حركة التدريس وتأليف الكتب التراثية فظهر بإيعاز وتشجيع منه، كتاب تعريف الخلف برجال السلف للشيخ أبي القاسم الحفناوي، في سنة 1907»[13]. كل هذا حتى يتمكن من بسط نفوذه وإحكام سيطرته على البلاد.

3 –تحويل السرد التاريخي إلى سرد روائي في رواية "البيت الأندلسي":

يتميز السرد التاريخي كما هو معروف بهيمنة الماضي، في عرض الأحداث، بينما نجد السرد الروائي ينفتح على الحاضر، ليصبح الماضي فيه مستمرا، ويتحقق هذا من خلال ربط الماضي بالحاضر، والعكس. وظهر هذا في رواية "البيت الأندلسي" في المقطع الآتي: «أكثر من أربعة قرون مرت على هذا البيت، وكأنها لم تكن، أكثر من ثمانين سنة مرت علي وكأنها لفحة ريح ساخنة»[14]، وهذا فيه تأكيد على أن "البيت الاندلسي" لم يتغير بالرغم من مرور مئات السنين عليه.

تسير الأحداث في السرد التاريخي وفق تسلسل زمني منطقي، أما في نظيرتها في السرد الروائي فلا تخضع لهذا الأمر حيث يتداخل فيها الزمن، وتظهر طريقة الانتقال من السرد التاريخي إلى السرد الروائي في الورقة الأولى من المخطوطة في اعتقال "سيد أحمد بن غاليليو الروخو" وأخذه إلى محاكم التفتيش المقدسة، وبعدها الحكم عليه بالموت، فلقاؤه مع مالك روحه ومنقذه الكاهن "أنجيلو ألونصو"، ثم طرده من حاضرة غرناطة الجريحة، فترحيله إلى منافي وهران بعد موقعة جبل البشرات.

ويتجلى السرد الروائي في حادثة القبض علىّ "غاليليو الروخو" التي وردت بعد ذكر منافي وهران «كثيرا ما أقول إنها مجرد خرافة لا أكثر ولا أقل، لكن قبل الدار هناك حياتي الخاصة التي قادتني نحو هذه الأرض الندية الناشفة في الوقت نفسه»[15]. وصف الراوي هنا المنفى الذي جاء إليه بعد سقوط غرناطة، ثم أعقبها بالقبض على "غاليليو الروخو" في قوله: «جاؤوا بي من أتون الحرب. كنت بين الموت والحياة، ولم أكن أملك أية قوة تسمح لي بالوقوف وظللت منتصبا الزمن الذي شاءوه»[16]. يقصد هنا الظروف الصعبة التي تم فيها اعتقال "غاليليو الروخو" ووصف حالته النفسية السيئة.

ويقول في موضع آخر على لسان "ماسيكا": «عندما ذهبت إلى إسبانيا، بحثت في وثائق الإسكوريال ومكتبة طوليدو القديمة عما ذكره غاليليو عن حياته وعن تهجير الموريسكيين والمارانيين، وحاولت أن أرمم الحكايات وأقوم المزالق التي لم تكن كثيرة، حتى حروب البشرات وسقوط الأمير الأموي الدون فرداندو دي كرودبا فالور (محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة)... الشيء الوحيد الذي لم يذكره هو أن قتل الدون فرناندو تم بتحالف بين

الأتراك والمدجنين من الموريسكيين لتوقيف حرب لم يكن لها أي معنى ... وعندما تنغلق عليه السبل سيفعل ما فعله محمد الصغير، وأجداده من بني الأحمر. التخلي. الحادثة الثانية التي رواها لي عن محاكم التفتيش المقدس عن نابليون، وجدتها حرفية... مما أكد لي أن غاليليو لم يكن رجلا متوهما»[17]. نلاحظ هنا تحويل الراوي السرد التاريخي إلى روائي، وذلك بهدف إحياء تاريخ الأندلس في حاضر الجزائر. وتجدر الإشارة هنا إلى أن "واسيني الأعرج" أقام فعلا في إسبانيا مدة طويلة ألف خلالها عدة روايات من بينها "رمل الماية وكتاب الأمير".

كما انتقل من زمن القصة إلى زمن السرد، ويتجلى ذلك في قوله: «أكثر من أربعة قرون مرت على هذا البيت، وكأنها لم تكن، أكثر من ثمانين سنة مرت علي، وكأنها لفحة ريح ساخنة، وكأن الزمن اختصر في حجرة مزقت طويلا قبل أن تحترق وتتحول إلى رماد. ليست السنوات العابرة شيئا مهما في أعمار الحجارة والبشر، ولكنها كافية للشهادة على زمن كان فينا ولم نكن فيه إلا قليلا»[18]. انتقل الراوي هنا من زمن القصة الذي هو أربعة قرون إلى زمن السرد الذي لم يتجاوز بضعة أسطر وبضع أوراق ودقائق، هذا من جهة الراوي، أما من جهة "مراد باسطا" فيقصد بذلك أن الزمن الذي عاشه البيت المقدر بأربعة قرون أصبح مصيره في حجرة بيضاوية صغيرة.

حول الروائي السرد التاريخي الذي يقوم به المؤرخون إلى سرد روائي، ويتجلى ذلك في إدراجه لما ذكره "ابن ميمون البلنسي" في كتابه الموسوم "ترحيل الخلف نحو بلاد السلف"، الذي حكي فيه عن بعض ما تعرض له مسلمو الأندلس من تعسف أثناء طردهم «وقد ورد حديث طويل عن سيد أحمد بن خليل المسمى بغاليليو الروخو، ويسميه ابن ميمون البلنسي: مولاي أحمد بن خليل، صاحب مكتبة البيازين، ومن ضمن ما حكاه عنه أنه كان عاشقا للكتب لدرجة أنه فكر يوما، عندما اندلعت حرب البشرات ، أن يحرق نفسه في مكتبه بدل الخروج من أرضه، ولكن رجالا صالحين منعوه من ذلك، وعندما اشتدت الحرب في جبال البشرات، انضم إليها ... ميغل سيرفانتس، كرر خطأ الإسبان في ذكر اسمه في روايته الكبيرة، دون كيشوت دي لامنشا، إذ هو من يروي القصة بكاملها، وقد ربطتهما صداقة كبيرة في القرن السادس عشر لدرجة أن غاليليو الروخو هو من حماه من موت مؤكد مع آغا الجزائر حسن فينزيانو. (ماسيكا)»[19]. تؤكد هذه الفقرة التي وردت في التهميش الأول لأوراق مخطوطة "غاليليو" تحويل ما ذكره "ميمون البلنسي" في كتابه "ترحيل الخلف نحو بلاد السلف" إلى سرد روائي على لسان "ماسيكا"، وذلك لإضفاء مسحة جمالية على الرواية.

4-توظيف أحداث التاريخ في رواية "البيت الأندلسي":

تنقسم الأحداث التاريخية في هذه الرواية إلى حدثين رئيسيين، خص الأول سقوط غرناطة التي عم فيها الظلم، الاستغلال وانتشار الفتن على المستوى الداخلي، إضافة إلى تعرضها لهجمات الأعداء التي كبدتها هزائم قاسية. أما الحدث الثاني فتمثل في محاولة النهوض بها من جديد، حيث بدأت تسودها بوادر العدل والمساواة، الأمر الذي مكن أهاليها من تحقيق النصر على المتربصين بأمنها.

تسرد الرواية أحداث انهيار الخلافة الإسلامية في بلاد الأندلس، وذلك بسقوط آخر قلاعها في غرناطة التي أصبحت تحت سيطرة الصليبيين، على الرغم من وجود بعض الثورات المتفرقة التي قام بها بعض المسلمين. ولعل

السبب في تراجعهم وتشتت قوتهم يعود إلى تقوقعهم على أنفسهم وانشغالهم بأمور الملك والترف. والرواية في عمومها وظفت هذه الأحداث المحزنة لتؤكد أن هذا الحاضر ليس إلا امتدادا للتاريخ العربي في جانبه المظلم المليء بالظلم، التسلط والاستهتار، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ أن سقوط "البيت الأندلسي" كان في آخر الرواية على يد الحكام المتسلطين، بعد أن أقنعوا بطل الرواية "مراد باسطا" بالتعويض عما لحق بالبيت من ضرر. ولتصوير كل ذلك استعان الروائي بالعديد من الأحداث التاريخية خاصة التي كانت بعد تشييد البيت «عدت من حرب الجمهوريين في إسبانيا أجر ورائي اسما جديدا باسطا، كانت مانويلا الدافئة وراء هذه التسمية قبل أن تصمت نهائيا وتتحول في أعماقي إلى جرح آخر يضاف إلى ذاكرتي المنهكة»[20]. نلاحظ في هذه الفقرة أن "مراد باسطا" يحكي عن حرب الجمهوريين التي وقعت في إسبانيا، وهو حدث تاريخي وقع بعد بناء "البيت الأندلسي".

وعلى الرغم من سيطرة الصراع الإسلامي والإسباني المسيحي على مجريات أحداث هذه الرواية، إلا أنها لم تكن بمنأى عن ذكر تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر كالتطرق لحقبة حكم "جونار"، حادثة 8 ماي 1945 وانقلاب سنة 1965، وكذلك مظاهرات 5 أكتوبر 1988 وما حدث في العشرية السوداء من مآس دموية أدت إلى هلاك الكثير من أبناء الشعب الجزائري.

إضافة إلى كل ذلك تم أيضا ذكر واقعة اغتيال اللاجئ السياسي العراقي إسماعيل "ماجد السامرائي" الذي كان عاملا في البرنامج النووي بعين وسارة بالجلفة، وهذه إشارة غير مباشرة لحرب الخليج.

5-الشخصية التاريخية في رواية "البيت الأندلسي":

5-1-أشكال ظهور الشخصية في الرواية:

5-1-1-الاستدعاء بالاسم:

المقصود بالاستدعاء بالاسم هو ذكر اسم الشخصية التاريخية في السرد الروائي كما فعل "غاليليو الروخو" حين صرخ قائلا: «ماذا فعلت بنا يا طارق؟ وما دهاك يا موسى بن نصير؟ من تكونان؟ رجلان حملا خفقانا صوب الجهة الأخرى، أم غبار قنابل البارود ووضعوها في كل زوايا شبه جزيرة أيبيريا لتنفجر فينا لاحقا ونتحمل أذاها؟ ماذا فعلتما بنا في النهاية؟ تقاتلتما مثل قابيل وهابيل لعرش لم يكن لأحد منكما، ... وانهزمتما بعد ثمانية قرون، بعد أن ورثتما حروب الإخوة لمن جاء بعدكما من ملوك الطوائف. هل أغضب منكما لأنكما لم تكونا في النهاية إلا معمرين صغيرين جريا وراء الذهب والنساء أم كنتما علامة عصر لم يكتب له أن يستمر طويلا؟»[21]. استدعى "غاليليو الروخو" هنا فاتحي الأندلس "طارق بن زياد وموسى بن نصير"، وهما شخصيتان شهيرتان في التاريخ الإسلامي، والغرض من توظيفهما هو الاعتزاز بالماضي البطولي المجيد للأمة الإسلامية. كما تم ذكر أبناء سيدنا "آدم عليه السلام قابيل وهابيل"، وهي إشارة صريحة لأول جريمة إنسانية حدثت على وجه المعمورة، وفي الآن ذاته صورة معبرة عن الصراع حول الحكم بين القادة المسلمين في بلاد الأندلس.

كما ذكر أيضا شخصية الملك "فيليب الثاني" الذي بدأ ببسط نفوذ حكمه على إسبانيا بعد سقوط الخلافة الإسلامية فيها «وقد استمر ذلك حتى سيطرة الملك فيليب على مقاليد الحكم، فكان عهده قاسيا على كل أفراد العائلة ومن كانوا في حمايته»[22] انتقاما منهم، ولكسب شعبية أكثر بحجة تحرير بلده من الايادي الأجنبية.

إضافة إلى كل هذا استدعاؤه لشخصية "الدون خوان النمساوي" الذي سحق انتفاضة الموريسكيين في غرناطة، وكذا شخصية الأمير الشاب "محمد بن أمية" الملقب بـ "الدون فردناندو دي كردوبا فالورد" الذي حمل لواء الدفاع عن المسلمين بعد أن نصبوه وليا على أمرهم «اختاروا يومها فتى قويا وسلموه عمودهم وأرواحهم، كان في سن العشرين، من أهل حي البيازين في غرناطة، ويدعى الدون فردناندو دي كردوبا فالورد»[23] الذي استطاع الصمود لفترة من الزمن في وجه الإسبان.

5-1-2-الاستدعاء بالقول والفعل:

يعتبر الاستدعاء بأقوال الشخصيات التاريخية الطريقة الأكثر شيوعا في النصوص الروائية، وهذا ما تجلى في هذه الرواية، حيث أدرج فيها مؤلفها سرد أقوال بعض الشخصيات المهمة في التاريخ الإسلامي كـ "محمد بن أمية، طارق بن زياد وموسى بن نصير"، إضافة إلى أخرى إسبانية مثل "سيرفانتس، دون خوان النمساوي".

ورد سرد بعض الأقوال هنا كما قيلت بحذافيرها، كالمقدمة التي ألقاها رئيس الديوان العقاري في الاجتماع الأخير الذي قامت به البلدية مع "مراد باسطا" من أجل تهديم البيت وبناء برج الأندلس، قائلا: «بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد الله رب العاملين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وقل ما يصيبنا إلا ما كتب الله لنا وبعد، قضية اليوم ...»[24]. يظهر هنا بأن هذه الافتتاحية ليست بالجديدة، إذ أن معظم الشخصيات والقادة المسلمين قديما وبعض السياسيين حديثا كثيرا ما استعملوها.

واستدعى الروائي أيضا أفعال بعض الشخصيات التاريخية، كقوله: «هـــو Charles Celest in JONNART (1857-1927) عينه غامبيطا في 1881 حاكما للجزائر، ولم يبق إلا سنة واحدة، ثم عينه من جديد فالديك روسو في 1900، في المنصب نفسه مرة أخرى. كان محبا للثقافة العمرانية الأندلسية، وكل ما له علاقة بالخصوصية المحلية؛ كان من وراء بناء معالم حضارية كبيرة منها البريد المركزي والمدرسة الثعالبية في الجزائر العاصمة»[25]. توضح لنا هذه الفقرة كيفية الاستدعاء بالأفعال فـ "جونار" كان يحب التراث الأندلسي والمعالم الحضارية، لذلك بنى البريد المركزي والمدرسة الثعالبية، وهذا ما جعل المؤرخين العرب يذكرون اسمه في كتبهم.

5-2-طرق تقديم الشخصية التاريخية:

خضعت الشخصية التاريخية في رواية "البيت الأندلسي" لمنطق السرد الروائي، وتم تقديمها بثلاثة طرق، هي:

5-2-1-عن طريق الراوي:

تولى الروائي في الكثير من صفحات هذه الرواية دور المؤرخ، إذ قام بسرد تاريخ فترات زمنية معينة مقدما بنفسه شخصياتها مثل قوله: «علمتني مسالك الدنيا القلقة أن أثق في عقلي، وأن أحمل الزمن محمل الجد، تخبئ لنا الأقدار ما تشاء، ولكنها تمنحنا أحيانا مسالكها بسخاء، كانت طريقي وعرة.

ولكني وصلت حيث اشتهيت متأخرا، لكنني وصلت نزلت على الأرض التي علقت رائحتها بتربة جسدي وكتبي وأشيائي الخفية، ووصلت، وصلت، لأني في النهاية كنت أريد أن أصل، حتى ولو غرقت في قلب حوت أعمى. وعلت أناشيدي الخفية على الرغم من انكساري: ... وصباحي طال...»[26]، وهذا دليل على تمسكه بأصوله التاريخية.

أدى استخدام الروائي لضمير الغائب إلى تقديم الشخصية التاريخية من وجهة نظر غريبة عنها، وهذا يعني أن التخلي عن الحقيقة يبقى احتمالا قائما لدى المتلقي الذي يراوده الشك حول صحة المعلومات المقدمة عن الشخصية التاريخية، لذلك قام بتوثيق المعلومات التاريخية عن طريق إكثاره من الهوامش والإحالات إلى المصادر التاريخية مثلما هو الحال في هذا المقطع «ربيعي. يوم العمر»»[27]. وردت هذه العبارة في بداية الورقة الخامسة من أوراق مخطوطة "غاليليو الروخو"، وقد قام الروائي بتوثيقها في الهامش بقوله: «في الكراسة التي تشكل الورقة الخامسة...لا ندري إذا كان سبب اللطخة راجع للرطوبة أم لحشرة الورق، أم للحرق الذي طال المخطوط"»[28]، كما عمد إلى استخدام ضمير المتكلم، الذي كثر توظيفه في الرواية كقول "ماسيكا" في الفصل الأول: «أنا ماسيكا. وإذا شئتم: سيكا بنت السبنيولية، كما سماني أصدقائي في المدرسة ... لأن أصولنا موريسكية مثل الآلاف من سكان الجزائر»[29]، وفي هذا اعتزاز بانتمائها وبجذورها التاريخية.

وهناك قول آخر لـ "مراد باسطا" وهو عبارة عن مونولوج: «من أين أبدأ هذا الجرح يا ماسيكا؟ أمن الدار، أم من سقم أصبح يشبهها في كل شيء؟»[30]، وهذا تعبير صريح عن وضعيته السيئة وعما لحق البيت من خراب.

5-2-2-عن طريق الشخصيات:

استخدم الروائي هذا الأسلوب محاولا رفض الإفصاح عن الكلام المتعلق بالشخصية وهذا نتيجة عدم قدرتها على الإدلاء بما يختلج ما بداخلها، ويتجلى هذا في معرض حديث الطفلة الصغيرة "ماسيكا" التي أكدت على امتداد أصولها لمن بنوا البيت أثناء زيارتها له، إذ جعلها تحكي لنا ما جرى لذلك البيت على مدار أربعة قرون من الزمن مستعينة في ذلك ببطل الرواية "مراد باسطا" والمخطوطة التي كانت مخبأة فيه، حيث قصت لنا أحداث سقوط غرناطة، موت الأمير "محمد بن أمية" ونفي "غاليليو الروخو" إلى وهران في المحروسة.

واستعمل أيضا هذه الطريقة مستخدما ضمير المتكلم في وصف عدم معرفة صاحب الحكاية بما جرى له، وهذا ما عبر عنه على لسان "ماسيكا" أثناء حديثها عن أصولها الموريسكية. كما استخدم الطريقة نفسها في سرده للحقيقة التي زيفها الوراقون ومؤرخو السلاطين والملوك، فالراوي هنا يشبه على حد قول "ميشال بوتور" المحقق البوليسي الذي يجمع كل المعلومات المتعلقة بشخص ما ليواجهه بها[31]، ويظهر هذا في نسخ "سليم" للمخطوطة التي كانت عند جده "مراد باسطا"، وأخذها لمواجهة أصحاب النفوذ الذين أرادوا تهديم البيت على أساس عدم وجود وريث شرعي له، متجاهلين في ذلك أحفاد "غاليليو الروخو ومراد باسطا".

5-2-3-عن طريق الشخصية التاريخية نفسها:

سمح "واسيني الأعرج" للشخصيات التاريخية في روايته هذه بالتكلم والحوار مع الشخصيات الأخرى، وبتقديم تاريخها بنفسها، مستعملا ضمير المتكلم، وهذا عند ذكر شخصيتي "ماسيكا ومراد باسطا"، هذا الأخير الذي قدم حياته في الصفحات الأولى من الرواية تحت عنوان "توشية مراد باسطا واستخبار ماسيكا".

وقد ورد استخدام ضمير المتكلم في سرد أحداث سقوط "محمد بن أمية" متناسبا ومبدأ السرد الروائي، وهو سرد سكت عنه المؤرخون وكتاب السلاطين والملوك، لذا فإن ما أخبرنا عنه "مراد باسطا" لا يعرفه أحد سواه، فحتى الراوي نفسه "غاليليو الروخو" يجهله ولا يعرف ما حدث له من معاناة في المحروسة التي نفي إليها «علمتني مسالك الدنيا القلقة أن أثق في عقلي وأن أحمل الزمن محمل الجد، تخبئ لنا الأقدار ما تشاء، ولكنها تمنحنا أحيانا مسالكها بسخاء، كانت طرقي وعرة، ولكني وصلت حيث اشتهيت، متأخرا»[32]. نلاحظ هنا غموض هذا القول فلا شيء فيه واضح، لذا لا يمكن فهمه وتفسيره إلا بتصريح صاحبه.

أخضع الروائي الشخصيات التاريخية لخصائص السرد الروائي، إذ قام بتحويلها إلى شخصيات روائية من خلال استنطاقها أولا ثم الكشف عن أعماقها ثانيا، فدفعها أخيرا إلى الحوار فيما بينها. وعن دفعها إلى الكلام باستخدام ضمير المتكلم نجده يوظف نموذج أوراق المخطوطة التي حكت تاريخ "البيت الأندلسي" والموريسكيين الأمر الذي أدى إلى ذكر بعض الشخصيات التاريخية أمثال: "محمد بن أمية، الدون خوان النمساوي، عبد الله محمد، منصور بن أبي عامر ... إلخ"، إضافة إلى ذكره لبعض الشخصيات الأخرى الفاعلة في التاريخ الأندلسي مثلما جاء على لسان "محمد بن أمية": «وكأنك يا طارق بن زياد ما صرخت وما فتحت؟ وكأنك يا موسى ما عزلت وما توليت؟ وكأنك يا عبد الرحمن الداخل ما رفعت سيفك وما دخلت؟ وكأنك يا عبد الرحمن الناصر ما ناورت وما استخلفت؟ وكأنك يا منصور بن أبي عامر ما قتلت وما حجبت؟ وكأنك يا محمد الصغير ما بعت واشتريت، لتنفذ من خرم الإبرة كأي خائن صغير !؟ كأنكم لم تكونوا. كأني لم أكن»[33]. لقد ساهم استنطاق هذه الشخصيات التاريخية هنا في كسر حاجز الزمن بالتقريب بين الماضي والحاضر، لتغادر بذلك ماضيها وتعيش في الحاضر.

وفيما يخص الكشف عن أعماق شخصياته التاريخية وسبر أغوارها وسرد ما لا يستطيع السرد التاريخي الكشف عنه، لجأ الروائي إلى استخدام ضميري المتكلم والمخاطب في تقديمها.

وعن دفع الشخصيات إلى الحوار فيما بينها وكأنها شخصيات روائية، فإننا نلمس ذلك في القول السابق، كما نجده أيضا في المقطع الآتي: «كان الفينكا خشنا، ويثق في نفسه كثيرا كلما أخافه أصدقاء الأمس، قال: مترددا أتكئ على حائط أقوى من حائط برلين، ربي ما يحركوش. اقترب الشاب منه أكثر حتى كاد يلامس وجهه. اسمع ما تخشنش راسك إذا أردت أن تبقى حيا»[34]. يوضح هذا الحوار المباشر السياسة السائدة حاليا التي لا مجال فيها للنقد.

6-خاتمة:

توصلت هذه الورقة البحثية إلى أن الحضور المكثف للتاريخ الإسلامي ببلاد الأندلس وللتاريخ المحلي لجزائر عهد الاحتلال الفرنسي وما بعده، وبعض الأحداث العربية لم يكن من باب الصدفة، فالغرض من ذلك هو بيان أسباب الانهيار، وكيفية النهوض من جديد وذلك بضرورة الحفاظ والدفاع على كل ما يصون ويحفظ تاريخ، مكانة واستمرارية الشخصية العربية عامة والجزائرية خاصة، وكل هذا كان بأسلوب فني مستمد من التقنيات الحديثة في كتابة الرواية.

تقترح هذه الدراسة ضرورة التعمق في الروايات التي تجعل من التاريخ مرجعا لها لمعرفة مدى صدقها في نقل الوقائع التاريخية التي تضمنتها، والمصادر التي نهلت منها ذلك. كما تدعو إلى البحث أكثر في نص "البيت الأندلسي" لكشف المزيد من خباياه، مرجعياته وأهدافه.

7-المصادر والمراجع:

7-1-المصادر:

1-الأعرج واسيني، (2010)، البيت الأندلسي، منشورات الجمل، ط1، بيروت، لبنان، بغداد، العراق.

7-2-المراجع:

7-2-1-الكتب العربية:

1-إبراهيم عبد الله، (1993)، السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان.

2-وتار محمد رياض، (2002)، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية.

7-2-2-الكتب المترجمة:

1-بوتور ميشال، (1989)، بحوث في الرواية الجديدة، تر: فريد أنطونيوس، دار عويدات، ط2، بيروت، لبنان.

2-زيرافا ميشيل وآخرون، (1985) الرواية، الأدب والأنواع الأدبية، ترجمة: طاهر حجار، دار طلاس، ط1، دمشق، سورية.

7-2-3-مواقع الأنترنيت:

1-الأحمد زياد، يناير/كانون الثاني، (2020)، العلاقة بين الأدب والتاريخ، مجلة الجديد، لندن، ع 60: https://www.aljadidmagazine.com

2-الذهبي خيري، يناير/كانون الثاني، (2020)، فعل مضاد للتاريخ، الرواية حينما تكتب التاريخ والتاريخ حينما يصبح رواية، مجلة الجديد، لندن، ع 60:https://www.aljadidmagazine.com.

8-الهوامش والإحالات:

[1]ميشيل زيرافا وآخرون، الرواية، الأدب والأنواع الأدبية، ترجمة: طاهر حجار، دار طلاس، ط1، دمشق، سورية، 1985، ص 128.

[2] زياد الأحمد، العلاقة بين الأدب والتاريخ، مجلة الجديد، لندن، ع 60، يناير/كانون الثاني، 2020، ص11:
https://www.aljadidmagazine.com

[3]محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 2002، ص 102.

[4]عبد الله إبراهيم، السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 1993، ص 302.

[5]خيري الذهبي، فعل مضاد للتاريخ، الرواية حينما تكتب التاريخ والتاريخ حينما يصبح رواية، مجلة الجديد، لندن، ع 60، ص 40:
ttps://www.aljadidmagazine.com

[6]واسيني الأعرج، البيت الأندلسي، منشورات الجمل، ط1، بيروت، لبنان، بغداد، العراق، 2010، ص 05.

[7] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[5]المصدر نفسه، ص252.

[9] ينظر المصدر نفسه، ص77.

[10] المصدر نفسه، ص 73.

[11]المصدر نفسه، ص 72.

[12]المصدر نفسه، ص 27.

[13]المصدر نفسه، ص 313.

[14]المصدر نفسه، ص28.

[15]المصدر نفسه، ص 64-65.

[16]المصدر نفسه، ص 68.

[17]المصدر نفسه، ص 17.

[18]المصدر نفسه، ص 28.

[19]المصدر نفسه، ص 61.

[20]المصدر نفسه، ص 29.

[21]المصدر نفسه، ص 66.

[22]المصدر نفسه، ص 81.

[23]المصدر نفسه، ص 81-82.

[24]- المصدر نفسه، ص 430.

[25]المصدر نفسه، ص 223.

[26]المصدر نفسه، ص 63-64.

[27]المصدر نفسه، ص165.

[28]المصدر نفسه، ص 165.

[29]المصدر نفسه، ص 7.

[30]المصدر نفسه، ص 27.

[28]ينظر ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، تر: فريد أنطونيوس، دار عويدات، ط2، بيروت، لبنان، 1989، ص69.

[32]البيت الأندلسي، ص 23.

[33]المصدر نفسه، ص 89.

[34]المصدر نفسه، ص 374.